

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ١٦ —

سامكها:

عاش الحكيم «كايل» مؤسس هذا المذهب في القرن السادس قبل المسيح كما يظن أكثر الباحثين المدققين. وقد نشأ هذا الظن عندهم من أن أقدم النصوص التي تحدثت عنه وعن مذهبه ترجع إلى القرن الخامس قبل المسيح، وأنه قد عثر في هذا المذهب وفي المذهب البوذي على تأثيرات قوية متبادلة بين المذهبين بالتساوي مما يدل على أنهما متعاصران تقريباً لاسيما إذا كان بعض تلك النقاط التشابهية واضح الأصلية في أحدهما والحدائث في الثاني، والبعض الآخر على العكس من ذلك تماماً.

بعض اللائ، فهم أشبه بنوع من الجار المنع بأصدافه، ولكم وجدت في داخلهم بدل الروح شيئاً من الرغوة المالحه. إن الشعراء يقتبسون من البحر غروره، وهل البحر إلا أشد الطواويس غروراً؟ فهو حتى أمام أقبح الجواميس يدرج أمواجه ويبسط أطالس مراوحه وأطراف وشاحه المفضض فيحده الجاموس بنظرات النيفظ لأن روحه القترية من الشاطئ. لا تزال ملتصقة بتلفه ومرعاه فإ يئالي بالجمال وبالبحر وببهاء الطواويس. هذا هو المثل الذي أضربه للشعراء. والحق أن فكرهم لطاويس مغرور بل هو بحر من الغرور، ففكر الشاعر يطلب من يشاهده حتى ولو كان المشاهد جاموساً.

لقد أتعبني هذا الفكر وسوف يأتي زمان — وهو قريب — يتم فيه هذا الفكر من ذاته.

رأيت بعض الشعراء يتحولون عن الشعر ويوجهون النعمة إلى ما كانوا عليه، ورأيت من يقدمون كفارة للفكر، وما نشأ هؤلاء الكفرون عن الضلال إلا بين الشعراء. هكذا تكلم زارا

سمى هذا المذهب بـ «سامكها» لقوله بالتمدن الذي لا يتناهي في النفوس، وهو على الأصح مذهب إلحادي لا يقول بإله مسيطر متصرف في الكون، وهذه إلحادي النقط التي يلتقي فيها مع البوذية التي صورتها لنا نصوص العصر الذي تلا عصر «بوذا» وبعبارة أدق: لعلها إلحادي النقط التي تأثرت فيها البوذية بعد موت زعيمها بمذهب «سامكها» الإلحادي الذي لا يشك باحث في أن الإلحاد متأصل فيه.

يرى صاحب هذا المذهب أنه لا يوجد للكون إله قدير منفرد بالتصرف فيه، وإنما يرى أن هناك روحاً عاماً أو عالماً من الأرواح غير محدود ولا متناه، متشابه الوحدات، وأن هذه الوحدات بتكاتفها مع المادة هي التي تحدث في الكون هذه الآثار وتلك التأثيرات على النحو الذي يفصله فيما بعد، وهو يرى كذلك وجود عالين هما في الحقيقة والأزلية والأبدية سواء. وهما: النفس، وتسمى بالهندية: «پوروشا» والمادة، وتسمى: «پراكريتى». وهذان العالمان لا يتفقان في أي شيء آخر عدا الحقيقة والأزلية والأبدية. ومع ذلك، فإن بينهما صلة قوية، لأن مجاورة النفس للمادة هي التي تكسبها الحركة التي هي منشأ كل النتائج الصادرة عنها، ولكن النفس وحدها لا تستطيع أن تفعل شيئاً وإن كانت حية مشتملة بالقوة على جميع عناصر القدرة التأثيرية، وهي مبصرة ولكنها عاجزة على عكس المادة العمياء المشتملة على قدرة كامنة يستحيل بروزها من غير اتصالها بالنفس، وهم لهذا يشبهون اتحادها باتصال مقعد وأعمى التقيا في صحراء، فاتفقا على تعاون عملي بينهما يضمن لهما النجاة، وهو أن يحمل الأعمى المقعد على كتفيه، ليتمكن من السير في مقابل أن يده المقعد بواسطة بصره على الطريق الذي لم يكن في مكتته أن يعرفه لولا معاونة رفيقه، وقد وصلا معاً إلى شاطئ النجاة بفضل هذا التعاون العظيم. وهكذا شأن النفس مع المادة هياً لهما اتحادهما إبراز خواصهما التي لم تكن لتوجد بدون هذا الاتحاد.

وللمادة ثلاث صفات ملازمة لها، وهي الخيرية والهووية والظلمة، وإن هذه الصفات تظل تتفاعل فيما بينها في عصور مختلفة حتى تصل إلى حالة الاعتدال التي تسوي بينها، فإذا وصلت إلى هذه الحالة تنطورت تطوراً آخر جديداً نشأت عنه الطبيعة، وارتباط النفس والمادة بالتنورة والطبيعة الناشئة عن هذا التطور يوجد هذا العالم المشاهد. غير أن هذه النظرية لم تلبث أن تلاشت

السموع وبسيط الريح «سبرس» وهو المموس . وبسيط النار «روب» وهو البصر . وبسيط الماء «رس» وهو الذوق ، وبسيط الأرض «كند» وهو الشموم . ولكل واحدة من هذه البسائط ما نسب إليه وجميع ما نسب إلى ما فوقه . فلأرض الكيفيات الخس ، والماء ينقص عنها بالشم ، والنار تنقص عنها به وبالذوق ، والريح بهما وباللون ، والهواء بها وباللس . ولعلمهم في نسبتهم الصوت إلى السماء يقصدون به أن لدوران الكواكب في أفلاكها تلك اللحون الموسيقية التي زعم « فيثاغورس » أن سماعها يتاح لكل من صفت نفسه ولطف حسه . والحواس المدركة ، وهي : السمع والبصر والشم والذوق واللس والارادة المصرفة والضروريات الآلية . واسم الجملة : « تنو » والمعارف مقصورة عليها^(١)

أما الانسان فهو عند هذا المذهب معقد تعقيداً بلغت النظر ، إذ هو مكون من ثلاث شخصيات مختلفة : الأولى الجسم المادي الذي ينحل ويتفكك بالموت ثم تتلاشى أجزأؤه في أصولها الناشئة عنها من عناصر المادة . الثانية جسم دقيق شفاف ، وهو الذي يعتبر في الحقيقة الجوهر الصحيح للانسان ، وهو الذي يتناسخ ويتقمص الأجسام الأخرى . الثالثة النفس التي هي الواحد الحق المائل كل المائلة لجميع الآحاد الحقبة التي هي من عالمه النفساني الغير النتهى .

ويرى هذا المذهب أيضاً أن الحواس الإنسانية لم توجد اتفاقاً ولا عبثاً ، وإنما وجدت وفقاً لعناصر الكون ، فكل خاصة من حواس الانسان يقابلها عنصر من عناصر الطبيعة يصلح لأن تقع عليه هذه الحاسة بالذات كما أشرنا إلى ذلك عند الكلام على الديانة البراهمانية .

وليس هذا التعقيد في شخصيات الانسان مقصوراً على مذهب « سامكهيا » وحده ، وإنما هو أسلوب هندي عام اشتركت فيه أكثر مذاهب تلك البلاد . بل إن غير « سامكهيا » قد يصل بهذه الشخصيات إلى أربع أو سبع أو عشر حسب الظروف والأحوال .

محمد غنوب

« يتبع »

طلت محلها نظرية أخرى على العكس منها تماماً ، إذا أصبحت كوة الارتباط الحقيقي بين النفس والمادة لا وجود لها ، وإنما يسح الرأي السائد هو أن النفس تجتمع مع المادة اجتماعاً مؤقتاً ، اسمه الضرورة التي تتطلبها الحياة الدنيوية ، ثم لا تلبث هذه رورة أن تزول فتتخلص النفس من هذه الصلة المقيدة لها ثم للقى إلى عالم الأبدية الأعلى حيث تنام بلا نهاية نوما عميقاً هادئاً ترجمه الرؤى ولا تنقصه الأحلام .

ويرى كذلك أن الشر في هذا العالم موجود وجوداً ذاتياً ، لا يقدر على عموه إلا بوساطة العمل الصالح والتخلي عن مع اللذائذ والتأمل في أسرار الكون ، وعلى الخصوص بالمعرفة ، هي الناية المثلى من جميع هذه المحاولات المتقدمة .

وهم للحصول على هذا الخلاص النشود بنالون في التصوف لاة شديدة حتى ليجلس الواحد منهم على شاطئ أحد الغدران أعوام طويلة دون أن يغادر مكانه ، وبقتات بالأعشاب ويدمى كرك في أسرار الكون ، ولا يزال ينال نفسه حتى ينتزعها نيكاً من دنس المادة ، وقد تصل به الحالة أثناء هذا التنسك إلى يصير جسمه نصف متحجر وتثبت فيه الحشائش وتلف الأغصان .

ومع ذلك فسوف لا يتم هذا الخلاص جميع النفوس البشرية سيق منها عدد غير متناه ساقطاً في أحابيل الشر مسجوناً بياتات الأجسام المادية ، لأنه مهما اقتطع من اللامتتهى عدد إلى الخلاص ، فإن ذلك الاقتطاع لا يؤثر فيه ولا يخرج منه صفة اللانتهائية لا سيما إذا عرف أن الأصل هو الشر أو بحاس في سجن المادة ، وأن التخليص عارض ، ولكن أنجمع نائل إلى هذا التخليص هو معرفة القوى الكونية الخس شرين ودوام التفكير فيها . ولذلك يقول «ياس ابن پراشن» : ف الخمسة والعشرين بالتفصيل والتحديد والتقسيم معرفة ان وإيقان ، لا دراسة باللسان ، ثم الزم أى دين شئت فان لك النجاة . . .

وهذه القوى الخس والعشرون هي : النفس الكلية والمهيولى دة ، والمادة المتصورة ، والطبيعة الغالبة ، والعناصر الرئيسية : السماء والريح والنار والماء والأرض ، وتسمى « مهابوت » مهابت التي هي بسائط العناصر ، فبسيط السماء « شبد » وهو

(١) أنظر صفحتي ٢١ ، ٢٢ من كتاب « تحقيق ما للهند من مقولة » للبيروني .